تحييد حماه عن عنف ريفها... فاتورة الدم الـ

ليس صدفة أن تعيش مدينة حماه وسط ريف مشتعل، يتمدد العنف فيه، دون أن يبتلعها. جرح المدينة متواصل منذ صراع الثمانينيات، حتى أحداث 2011. تاريخ من المجازر طوته ذاكرة المدينة، وفق إرادة تقاسمها الشعب والنظام معاً، بعدما اكتفى الحمويون بما قدموه من دماء في عهد سابق

حماه ــ مرح ماشي

لا يمكن تصوّر المشهد الأوّل من داخل مدينة حماه، مجسّداً بهدوء مخيف يسود مباني حي الشريعة الراقي. أبوابٌ مقفلة على الكثير من الأسرار، واكبها الحي المذكور بصمت دائم منذ أحداث الثمانينيات الدامية. شرفات خاوية داخل مبانٍ تبدو خالية من سكّانها. صمتٌ كثيفٌ في وضح النهار يثير في المرء تساؤلات عن أهالي الحي. الأمر ببساطة لا يعدو كون شوارع الحي خالية من المارين خلال فترة الظهيرة وحَرّها. يبتسم المرافق قائلاً مع بعض المبالغة: «الحمويون لا يستخدمون شرفات منازلهم. ولا يفتحون الأبواب، لا لسبب سوى لأنهم محافظون». يمكن الابتسام قليلاً، فالنظام لم يختطف أهالي الحي الحموي، كما يحلو التندّر بالاتهام الأسهل.

حمويون خارج بركات «الربيع»

يظهر نهر العاصي عند مشارف حي الشرقية. ويتابع امتداده في حي البارودية وصولاً إلى الحارات القديمة والقلعة. على طول النهر تتوزع نواعير حماه، التي لطالما تغنّى بها أهل المدينة، وصولاً إلى تشكيلهم «لواء» باسمها، ضمن تشكيلات «الجيش الحر» في بلدة طيبة الإمام، في ريف حماه الشمالي. 19 ناعورة تتوزع على امتداد مجرى نهر العاصي داخل المدينة وحدها، من أصل 40 ناعورة موزعة بين حماه وريفها. الحمويون يستندون إلى أسوار مجرى النهر، ويتأملون نواعيرهم بسلام. الازدحام شديد عند منتصف النهار. يتناوب الأطفال لامتطاء جمَل يسير قبالة الناعورة... ويتواصل التقاط الصور التذكارية.

مشاهد الحياة اليومية التي تعيشها المدينة، لا توحي بتاريخ من الموت مرّ عليها. صورة غريبة لمدينة سورية اهتمّ النظام بتحييدها عن الحرب القائمة، ونجح في استبعادها، حتى الآن. تتشارك المدينة مع أخواتها السوريات ظاهرة أطفال الشوارع الذين يملأون كل الأماكن. سيستغل أحد الأطفال وجود «سائح» يلتقط الصور التذكارية في مدينته، ويطالب بالمال مستعيناً بملامح باكية. حزن مصطنع مدهش يحدثه الصغير، يجعل «السائح» يسأل: «أين والدك؟»، وسيجيب بصبر على السؤال المكرر، بكلمة واحدة: «مات».

التحرك باتجاه ساحة العاصي، عبر شارع البنوك، يجعل حامل الكاميرا محط أنظار القوى الأمنية. لم تعد آلة التصوير أداة محببة في يد أي كان على الأراضي السورية. وحتماً استخدامها على جبهات القتال، أسهل من استخدامها في الشوارع الآمنة والمأهولة بالناس.

وحده شرطي المرور في ساحة العاصي، سيلوّح للكاميرا، ممثّلاً هيبة الدولة القائمة في الشوارع. الناس أيضاً يتهربون من التصوير، ويرتاحون قليلاً إن رأوك قد توقفتَ مع رجل يرتدي لباساً مموّهاً، يمثّل، بالنسبة إليهم، شخصاً موكلة إليه حماية المدينة وأهلها من «بركات الربيع العربي» التي لم تكن تنقص المدينة. صبري، طفل يبيع العلكة بالقرب من حديقة أم الحسن. يعمل كل يوم في منطقة مختلفة. سمع من أهله الكثير عن أحداث الثمانينيات الدامية، غير أنه لا يتحدث إلا بما رآه من «ثورة 2011»، إذ يقول: «عانينا أشهراً طويلة من إغلاق الشوارع بحواجز لجان الثورة وشباب التنسيقيات المسؤولين عن التظاهرات. توقفت أشغالنا وأجبر المرحوم والدي على إغلاق دكانه، تماشياً مع إضراب الكرامة. إلى أن انتشر السلاح في الشوارع بوضوح».

«حصان طروادة» للشفاء

في حيّ جنوب الملعب جنوباً، ومشاع الأربعين شمالاً، يلفت طيف الثورة الذي مرّ من هُنا. الطيف هذا يقتصر على كتابات مشطوبة على الجدران، قبل أن يتوقف كل شيء فجأة. نامت حماه «ثائرة» واستفاقت صباحاً، فكان «أن شفيت من ثورتها». الناس يتحدثون عن الضابط الشهير العقيد سهيل الحسن، ودوره في حماه، منذ أن كان على رأس جهاز المخابرات الجوية فيها. يتحدّث كثيرون عما قام به الحسن، ولا سيما بعد وصوله من حلب على رأس تعزيزات إلى الريف الحموي الذي تزداد رقعة معاركه، حتى تكاد تحاصر المدينة. للعقيد، بنظرهم، خبرته في المدينة وأهلها. يروي مصدر ميداني عاصر بداية الأحداث الأمنية في حماه عن «خدعة الجيش لاستعادة السيطرة على المدينة من يد المسلحين، حيث جرى اتباع خطة حصان طروادة مع المسلحين، بعد تظاهر بعض العناصر بالانشقاق ضمن عربات مدرعة دخلت المدينة، للانضمام إلى الثوار، الذين سرعان ما جرى تطويقهم والقضاء على أعداد كبيرة منهم وفرار بعضهم الآخر باتجاه الريف». الرواية الشعبية لما جرى، يتحدث عنها عادل، وهو مدرّس متقاعد، إذ يقول: «كنا تحت رحمة أولاد التنسيقيات. لم يكن الأمر يحتمل بالنسبة إلينا، أن يلعب هؤلاء الصغار الحالمون بأعمارنا. المدينة بتاريخها ورمزيتها، لا تحتمل ذلك أبداً. والنظام يعي حساسية الأمر». ويتابع: «للمدينة تعاطف كبير في الوجدان الإسلامي على خلفية الصراع الدموي السابق بين الإخوان المسلمين والنظام، ما جعلها محط أنظار أنصار الحراك وطالبي الدعم له».

وبحسب الرجل الستيني، فقد كان يعوّل على انتفاضة حماه باعتبارها «الشعرة التي ستقصم ظهر البعير من خلال ما ستلقاه من تأييد وتمويل كل متردد في دعم الحراك». لا يثق الرجل كثيراً، بالقدرة على الاستمرار في إمساك النظام بالوضع الأمني داخل حماه، وسط ريف يزداد اشتعالاً ليرسم طوقاً حول أحياء المدينة.

مدينة إسلامية في دولة علمانية

قبالة ناعورة المأمورية القريبة من

مضى السفير الأميركي وجميع قادة الإخوان وتركونا لقدرنا (الأخبار)

قليله من... المسيحيين

بالقرب من القلعة يسكن مسيحيو حماه في حيّ المدينة إلى الجنوب الغربي من القلعة، إضافة إلى الجزء الغربي من حارة المغيلة قرب القلعة أيضاً. يعدّ حيهم بمبانيه الأثرية الأقدم في المدينة. بلغ عدد مسيحيي حماه 80 ألفاً قبل الأحداث، فيما يقدّرون اليوم، بحسب إلياس، وهو مهندس من أبناء حي المدينة، بقرابة 30 ألفاً، ولا سيما بعد التعرض لأحد رجال الدين المسيحيين بالقتل داخل كنيسته في بداية الحراك.

«اليوم لا نشهد سوى أحداث أمنية متفرقة، يجري ضبطها سريعاً، في حيي الحاضر وجنوب الملعب مثلاً. آخر الحوادث الأمنية منذ أقل من شهر: حرق ناعورة الجعبرية، في ظروف مجهولة»، يقول إلياس. ويتابع: «نعيش اليوم بسلام. الأمور تغيرت إلى الأفضل، والكثير من المسيحيين النازحين عادوا». ويشرح مشاكل المدينة، المتمثلة في كثافة عدد نازحي الرقة وحلب وريف حماه، إذ كان عدد سكان المدينة لا يتجاوز مليون نسمة، فتحولوا اليوم إلى 3 ملايين، ما أثّر سلباً على الخدمات.

إسرائيل: علاقاتنا بجبهة النصرة آخذة بالتطور

جنود من «الاندوف» يراقبون الاشتباكات في القنيطرة أمس (أ ف ب)

يحيى دبوق

لا تخفي إسرائيل قلقها من القتال الدائر في الجولان، والأنباء عن سيطرة «جبهة النصرة» و«المعارضة السورية المعتدلة» على معبر القنيطرة ومحيطه. إلا أن قلق إسرائيل لا يصل إلى حد استنفار جيشها والتحسب من الآتي. فضل إسرائيل على المعارضة السورية، بمختلف تنوعاتها، ومن بينها «النصرة»، كبير، إلى حدّ يجعلها تقزّم قلقها إلى أدناه، من باب الحيطة والحذر، لا أكثر.

أمس، كما في اليومين الأخيرين، زاحمت أنباء معبر القنيطرة، وسيطرة «النصرة» عليه، تقارير وتحليلات فشل العدوان على قطاع غزة. فـ«تنظيم القاعدة يدق أبواب الشمال»، كما قال أحد المراسلين العسكريين من الجولان محذراً، فيما يجيبه آخر مطمئناً بأنّ «الوضع تحت السيطرة، فحتى جبهة النصرة غير معنية بقتال إسرائيل والصهاينة».

مع ذلك، أمر الجيش الإسرائيلي كل المستوطنين بعدم الاقتراب من المناطق القريبة من الحدود، والبقاء بالقرب من الأماكن المحصنة، إذ بحسب مصادر عسكرية إسرائيلية، ينوي الجيش السوري إعادة السيطرة على المعبر والمنطقة المحيطة به، ما يعني مزيداً من القذائف والرصاص، عن قصد أو غير قصد، باتجاه الجانب الإسرائيلي من الحدود. لكن ماذا عن سيطرة «النصرة» على المعبر وانتشارها على الحدود وتداعياته؟ إجابات المراسلين والمصادر العسكرية كانت كافية لطمأنة مستوطني الشمال.

صحيفة «يديعوت أحرونوت» ذكرت أنهم في قيادة المنطقة الشمالية يتابعون بحذر التطورات الأخيرة على الحدود، بعد أن سيطرت «قوات متمردة سورية»، ومن بينها عناصر تابعة لـ«جبهة النصرة»، الموالية لتنظيم القاعدة، على الجانب السوري من معبر القنيطرة. و«ينظرون في الجيش إلى هذا التطور الميداني الجديد على أنه خسارة إضافية لمؤشر سيادة الجيش السوري على الجولان».

بحسب الصحيفة، فإن تداعيات فقدان سيطرة النظام على المعبر هي فقط «تجميد عبور الناتج الزراعي من التفاح في الجولان، ومنع عبور الشباب الدرزي للدراسة في سوريا». أما من جهة إسرائيل، فإن «المؤسسة الأمنية تدير اتصالات مع المتمردين، وتقدم المساعدة الإنسانية لجرحاهم وعلاجهم في مستشفياتها، إضافة